إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ

المهندس عدنان الرفاعي

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ

.. رَفْعُ التاريخ بأهواء كاتبيه وعصبيّاتهم إلى مستوى المنهج ، واعتباره منهجاً يحلُّ مكان منهج الله تعالى ، هو ديدن محرِّفي الكَلِم عن مواضِعه ومن بعد مواضِعه ، في جميع الرسالات السماويّة دون استثناء ..

.. وما يميّز الرسالة الخاتمة أنَّ نصَّ منهجها (القرآن الكريم) محفوظٌ من التحريف والحذف والزيادة ..

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر : ٩]

.. ولذلك .. تركَّز تحريف الكَلِم عن مواضعه ومن بعد مواضعه في الرسالة الخاتمة من خلال طريقين ..

١ – عبر افتراء روايات على الرسول ﷺ ونسبها إلى المنهج وإعطائها صلاحيات تصل إلى نسخ أحكام كتاب الله تعالى ..

٢ – عبر تحريف تفسير الكثير من آيات كتاب الله تعالى بعيداً عن حقيقة دلالات كلماته ، وبعيداً عن الصياغة اللغويّة لعباراته ، والنظر إلى كتاب الله تعالى من منظار روايات تاريخيّة لُبِّست على منهج الله تعالى ومنهج الله تعالى منها براء ..

.. وتلبيس نصوص كتاب الله تعالى بروايات تاريخيّة تمَّ تفصيلها حسب الأهواء والعصبيّات ، أمرٌ كثيرٌ في موروثنا الفكري .. وقد تعرَّضْتُ لبعض هذه النصوص الكريمة في كتبي ومقالاتي وبرامجي التلفزيونيّة ، وبيّنت أنَّها نصوصٌ مطلقة حاملة للتاريخ وليست محمولة به ..

سنقف في هذا السياق عند آية من كتاب الله تعالى تمَّ حصر دلالاتها بحادثة تاريخيّة محدّدة ، ثمَّ احتجّوا بها على تعديل جميع الصحابة حسب تعاريفهم هم للصحابة ..

﴿ ۞ لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾ [الفتح : ١٨]

.. حصروا أحكام هذه الآية الكريمة ودلالاتها في إطارٍ لا يتجاوز بيعة أصحاب النبيِّ ﷺ بالحديْبِيَة حين بايعوه على نصرته ، وعلى ألاَّ يفرّوا ، وعلى ألاَّ يولوا الدبر ، وذلك تحت الشجرة ، حيث أرسل النبيُّ ﷺ عثمان بن عفان برسالته إلى الملإ من قريش ، فأبطأ عثمان عليه بعض الإبطاء ، فظنّ أنه قد قُتل ، فدعا أصحابه إلى تجديد البيعة على حربهم ، فبايعوه على ذلك ، وهذه البيعة تسمى بيعة الرضوان ، وقد اُختلف في عدد الذين بايعوا ، فمنهم من قال عددهم (١٤٠٠) ، ومنهم من قال عددهم (١٥٢٥) ، ومنهم من قال عددهم (١٣٠٠) ... هذا مختصر القصّة التاريخيّة التي تمّ حصر دلالات هذه الآية الكريمة في إطارها ..

.. ما نراه في هذ الآية الكريمة أنَّ رضا الله تعالى ﴿ رَضِيَ ﴾ المجرَّد عن المكان والزمان ﴿ ۞ لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ ، هو لمبايعة مستمرة إلى قيام الساعة ، وليس مقصوراً على حادثة تاريخيّة بعينها ، وذلك بدليل ورود كلمة ﴿ يُبَايِعُونَكَ ﴾

بصيغة المضارع ﴿ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ ﴾ .. فورود كلمة ﴿ يُبَايِعُونَكَ ﴾ بصيغة المضارع ليس عبثاً ، وهو حقيقة لغويّة لا يمكن القفز فوقها ..

.. المبايعة المعنيّة في هذه الآية الكريمة ليست حادثة محدَّدة تمَّت وانتهت قبل نزول نصّ هذه الآية الكريمة ، إنّما هي مبايعة مستمرّة متكرّرة يقوم بها المؤمنون في كلِّ زمانٍ ومكان ، وكلُّ ذلك محمول برضا الله تعالى ..

.. ولو نظرنا إلى العبارة ﴿ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ ﴾ ، لرأينا أنَّ هذه المبايعة المستمرّة في كلِّ زمانٍ ومكان ﴿ يُبَايِعُونَكَ ﴾ إنّما تحصل تحت الشجرة .. وما نراه فيها أنَّ كلمة ﴿ ٱلشَّجَرَةِ ﴾ ترد معرّفةً بأل التعريف ، وهذا بيانٌ إلهيٌّ يصف شجرةً محدَّدة معروفة موصوفةً في كتاب الله تعالى .. فهل من الممكن أن نتصوَّر ورود كلمة ﴿ ٱلشَّجَرَةِ ﴾ بصيغة معرّفة بأل التعريف ، دون أن يحمل ذلك بياناً لحالة معروفة محدّدة موصوفة في كتاب الله تعالى ؟ ..

.. وبالتأكيد .. ورود العبارة ﴿ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ ﴾ ليس عبثيّاً وليس مقصوراً على مجرَّد مكانٍ حسيٍّ للمبايعة في تاريخ محدَّد لقصّة محدَّدة بعينها ، فماهيّة المبايعة لها علاقتها بالدلالة المحمولة بالعبارة ﴿ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ ﴾ ، بمعنى : جوهر المبايعة يتميَّز بكونه تحت الشجرة ، وهذا يختلف عن احتمال كون هذه المبايعة ليست تحت الشجرة .. بمعنى : كون هذه المبايعة تحت الشجرة يميّزها ويعطيها خصوصيّة وقيمة لا تصل إليها هذه المبايعة إلاّ بهذه الحيثيّة ، فالمبايعة المعنيّة ﴿ يُبَايِعُونَكَ ﴾ لا يمكنها أن تحمل خصوصيّتها هذه إلاّ بكونها ﴿ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ ﴾ ..

.. ولإدراك هذه الحقيقة لا بدّ من العودة إلى مشتقّات الجذر اللغوي (ش ، ج ، ر) في كتاب الله تعالى والذي تفرّعت منه كلمة ﴿ ٱلشَّجَرَةِ ﴾ ، وذلك لرسم صورة الدلالة المحمولة بكلمة ﴿ ٱلشَّجَرَةِ ﴾ في هذه الآية الكريمة ..

.. المعنى المجرَّد لمشتقّات الجذر (ش ، ج ، ر) في كتاب الله تعالى يعني : التشابك والاختلاط والتداخل ، وهذا ما نراه جليّاً في قوله تعالى :

﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾ [النساء : ٦٥]

.. ومن هنا نتلمَّس الدلالة المرادة في كلمة ﴿ ٱلشَّجَرِ ﴾ ، بمعنى التداخل والتشابك بين الأوراق والأغصان ..

﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴾ [النحل : ٦٨]

.. إذاً .. الأصل في المعنى هو التداخل والتشابك ، وهذا ما نراه جليّاً في قوله تعالى :

﴿ ۞ فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴾ [الصافّات : ١٤٥ – ١٤٦]

.. فما أنبته الله تعالى على يونس عليه السلام بعد أن نُبذ بالعراء وهو سقيم ، ليس شجرةً اسمها شجرة اليقطين .. فالله تعالى لم يقل : ((**وأنبتنا عليه شجرة يقطين**)) .. أبداً .. الله تعالى يقول ﴿ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴾ ، فتمَّ إنبات حالة من التشابك والتداخل فوقه ﴿ شَجَرَةً ﴾ ، وهذه الحالة ماهيّتها من يقطين .. هكذا تنطق صياغة النصّ القرآني ..

.. لذلك .. لم يضف القرآن الكريم كلمة شجرة إلى أيٍّ نوعٍ من أنواع الشجر المعروف لدينا ، فلم يقل شجرة كذا ، إلاَّ لقضيّة مجرَّدة عن أصناف الشجر الحسيّة المعلومة لدينا .. وهذا ما نراه في قوله تعالى ..

﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴾ [طه : ١٢٠]

.. من الواضح أنَّ المعني بقوله تعالى ﴿ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ ﴾ ، ليس صنفاً من أصناف الشجر كقيمة غذائيّة ..

.. وفي وصف طعام جهنّم نرى إضافة كلمة شجرة إلى كلمة الزقّوم ..

﴿ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَءَاكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴾ [الصافّات : ٦٢ – ٦٦]

﴿ إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ ﴾ [الدخان : ٤٣ – ٤٦]

.. ودلالات العبارة القرآنيّة ﴿ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴾ لا تعني شجرةً محدَّدة تنبت كشجر الدنيا الذي نعلمه ، إنّما تعني حالة التشابك والتداخل الناتج عن الجحيم ، ولذلك نرى كلمة ﴿ تَخْرُجُ ﴾ دون غيرها في قوله تعالى ﴿ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴾ .. وهذا ما نراه أيضاً في قوله تعالى :

﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَءَاكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴾ [الواقعة : ٥١ – ٥٦]

.. والنار كطاقة نشاهدها في حياتنا الدنيا ، وبأوجهها المختلفة ، الله تعالى هو الذي أنشأ تداخلها وتشابكها وتحوّلها ﴿ شَجَرَتَهَآ ﴾ ..

﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَـٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَـٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴾ [الواقعة : ٧١ – ٧٣]

.. لذلك نرى الصيغة [﴿ أَنشَأْتُمْ ﴾ ، ﴿ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴾] دون أيّة صيغة أُخرى كالخلق أو الإنبات ..

.. في هذا الإطار من حدود الدلالات المحمولة بمشتقّات الجذر (ش ، ج ، ر) ، ندرك الدلالات التي يحملها قول الله تعالى ..

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَـٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [النحل : ١٠ – ١١]

فالعبارة القرآنيّة ﴿ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴾ لا تعني : ينبت منه شجرٌ فيه تُسيمون كما ذهبت تفاسيرنا الموروثة ، وذلك لسببين :

١ – هذه العبارة ليست مسبوقة بكلمة ينبت ، ولا يمكن إلغاء احتمال كون هذه العبارة معطوفة على العبارة السابقة لها ﴿ لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ ﴾ .. بمعنى : لكم منه شرابٌ ولكم منه شجرٌ فيه تُسيمون ﴿ لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴾ .. وحتى باعتبار الجملة ﴿ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴾ استئنافيّة ، فإنّ ذلك لا يُلغي من كون الدلالة المحمولة غير متعلّقة بالإنبات ..

٢ – العبارات القرآنيّة التالية لها مباشرة ﴿ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ﴾ ، هي ما يحمل دلالات كون الماء سبباً في إنبات كلّ ما ينبت بالماء في حياتنا الدنيا ، وهذا يؤكِّد أنَّ ربط العبارة القرآنيّة ﴿ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴾ بالإنبات غير سليم ، لأنّه – في حالة ربطها بالإنبات – نكون أمام تكرارٍ لا داعي له في عبارات قرآنيّة متتالية ، وهذا لا يليق بالصياغة المطلقة لعبارات كتاب الله تعالى ..

من هنا نرى أنَّ دلالات العبارة القرآنيّة ﴿ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴾ تعني ولكم منه (في حال كانت الجملة معطوفة) أو ومنه (في حال كانت استئنافيّة) تشابك واختلاط يدخل فيه الماء مع مواد أخرى في تكوين ما يستفيد منه الإنسان في حياته الدنيا .. ونحن نعلم أنَّ الماء يدخل في تركيب معظم المواد التي يستفيد منها الإنسان في حياته الدنيا ..

.. إذاً .. مشتقّات الجذر (ش ، ج ، ر) تعني التداخل والتشابك والاختلاط ، وهذا ما رأيناه بشكلٍ جليٍّ في قوله تعالى ..

﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾ [النساء : ٦٥]

.. لنعد إلى العبارة القرآنيّة التي نحن بصدد تفسيرها : ﴿ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ ﴾ .. فكما قلنا : كون كلمة ﴿ ٱلشَّجَرَةِ ﴾ معرّفة بأل التعريف ، فهذا يعني تشابكاً وتداخلاً واختلاطاً معروفاً موصوفاً في كتاب الله تعالى ..

.. من هنا نرى أنَّ دلالات العبارة القرآنيّة ﴿ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ ﴾ ، تعني : إذ يلتزمون بمنهج الرسالة ويسيرون به ، أثناء وقوعهم تحت ما بيّنه الله تعالى وحذّر منه من ظروف التداخل والتشابك والاختلاط التي يختلط فيها الحقُّ بالباطل ..

فحينما تسود الفتن في المجتمع ، وتختلط الأمور بحيث يُقدَّم الباطل على أنَّه حق ، ويُقدَّم الحق على أنَّه باطل ، وينغمس المجتمع في مستنقع هذا الضلال الذي حذَّر الله تعالى منه في كتابه الكريم .. حين ذلك .. فإنَّ الذين يلتزمون بمنهج الحق الذي يبيّنه كتاب الله تعالى ويبتعدون بأنفسهم عن الغرق في مستنقع هذا الضلال ﴿ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ ﴾ .. هؤلاء .. فازوا برضا الله تعالى عليهم ﴿ ۞ لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ ﴾ ..

.. والآية الكريمة :

﴿ ۞ لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾ [الفتح : ١٨]

.. لا تحمل دلالاتٍ لتعديل جميع أفراد الجيل الأوَّل ، كما يهوى من لم ولن يبصروا ومضة نور من حقيقة دلالات كتاب الله تعالى .. ما تحمله من دلالات يتعلَّق برضوان الله تعالى عن المؤمنين .. فالدلالات – كما نرى – خاصّة بفئة من الناس هم ﴿ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ ﴾ ، ولا تعني جميع أفراد الجيل الأوَّل ..

.. وورود الفاء العاطفة في بداية العبارة القرآنيّة ﴿ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ ﴾ : ﴿ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ ﴾ ، لا يتعارض مع إطلاق النصِّ القرآني ، إنّما يؤكِّد هذا الإطلاق .. فنحن نعلم أنَّ علمَ اللهِ تعالى لما في قلوبهم ، لا يتأخَّر عن مبايعتهم تحت الشجرة ، ولا يتأخَّر عن رضاه عنهم .. وما نراه أنَّ العلمَ هو بصيغة

الماضي ﴿ فَعَلِمَ ﴾ ، وليس بصيغة المضارع ، وبالتالي فالعلم المعنيُّ هو علم الله تعالى الكاشف أزلاً .. وكلُّ ذلك يؤكِّدُ أنَّ أحكام هذه الآية الكريمة – شأنها بذلك شأن كلّ آيات كتاب الله تعالى – ليست متوقّفة على حادثة تاريخيّة محدَّدة ، إنّما هي نواميس وأحكام صالحة لكلِّ زمانٍ ومكان ، دون أن ننكر إمكانيّة حملها للحادثة التاريخيّة ..

.. وحتَّى لو سلَّمنا لفرض الإطار التاريخي على هذه الآية الكريمة ، فإنَّ هذه الآية لا تحمل ما يذهبون إليه من تعديل لجميع رجال الجيل الأوَّل ..

فمن جهة .. الآية الكريمة تتعلَّق برضوان الله تعالى ، وليس بالتعديل والعلم والضبط في النقل ، فقوله تعالى ﴿ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ۝١٨ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ﴾ ، نراه يتعلَّق بمسائل لا علاقة لها بما يذهبون إليه في توظيف هذه الآية الكريمة لتعديل جميع رجال الجيل الأوَّل ..

ومن جهة أُخرى .. الآية لا تشمل كلَّ رجال الجيل الأوَّل الذين عددهم أكبر بكثير من العدد المختلف فيه أصلاً في هذه البيعة ..

الأهم من كلِّ ذلك .. أنَّ هذه الآية الكريمة – كما بيّنا – تحمل دلالاتٍ وأحكاماً عامّةً ، لها إسقاطاتها في كلِّ زمانٍ ومكان .. واستشهادهم بها على تعديل جميع رجال الجيل الأوَّل ليس سليماً على الإطلاق ..

.. من هنا ندرك ضرورة النظر إلى عبارات كتاب الله تعالى من المنظار المجرَّد عن التاريخ ، وألاَّ نفرض عليها تصوّرات تاريخيّة وأهواء مسبقة الصنع ..